Imam Sadiq University
ISQH
Quarterly Journal of Interdisciplinary Studies of Quran & Hadith
Language Center

Vol. 2, Issue. 2 (Serial 6), Autumn 2024, pp. 225-248

The Dynamic Interpretation of the Principle of "Preparing Strength" (I'dad al-Quwwah): Its Conceptual Transformation from "Tethering of Horses" to Encompass Modern Defense Technologies and the Imperatives of Comprehensive Security

Reza MollazadehYamchi [*] **, Meysam Shoaib** [**]

* Postdoctoral Fellow, Ferdowsi University. (Corresponding Author)
Email: reza.mollazadehyamchi@alumni.um.ac.ir orcid.org/0009-0001-6593-7545
** Phd. Graduate of the Department of Jurisprudence, Faculty of Theology, Ferdowsi University of Mashhad, Mashhad, Iran.
Email: m.shoaib@urd.ac.ir orcid.org/0000-0003-2904-9601

Abstract

The Qur'anic principle of "Preparing Strength" (I'dad al-Quwwah), stipulated in the 60th verse of Surah Al-Anfal, represents a central and strategic concept in the Islamic defense and security paradigm. Through a qualitative content analysis methodology and drawing upon a wide range of classical and modern exegeses, this study explores the dynamic interpretation and profound conceptual transformation of this principle. It traces its evolution from its initial military applications, such as "archery" (al-ramy) and the "tethering of horses" (ribat al-khayl), to its modern-day inclusion of contemporary defense technologies and its expansion to encompass non-military dimensions of power. The findings demonstrate that the concept of "strength" (al-quwwah), owing to the semantic breadth of the term and the comprehensiveness of the rule "whatever you are able" (ma istaṭaʿtum), has been inherently flexible from its inception, allowing it to adapt to the requirements of each era. In the literature of contemporary exegetes, it has evolved to include modern military capabilities (including advanced defense industries), in addition to the pillars of economic, scientific, cultural, and political power. This conceptual shift has consistently been anchored in the core objective of "deterrence" (tarhib)—that is, building an effective deterrent capability against declared enemies and potential, unseen threats ("others from among them whom you do not know"). This has solidified the principle of "preparing strength" as an integrated strategy for establishing the foundations of "comprehensive security" and reinforcing its sustainability within the Muslim community. This renewed awareness of the principle's objectives urges the Islamic Ummah to direct its investments toward all components of power and to strive diligently for self-sufficiency, thereby safeguarding its security, sovereignty, and dignity in a firm and sustainable manner.

Keywords: Preparing Strength (I'dad al-Quwwah), Tethering of Horses (Ribat al-Khayl), Comprehensive Security, Deterrence (Tarhib), and Dynamic Interpretation.

Received: 19 October 2024 Revised: 6 November 2024 Accepted: 21 November 2024
Article type: Research Article DOI: 10.30497/isqh.2025.248393.1054
Publisher: Imam Sadiq University
© The Author(s).
How to cite: MollazadehYamchi, R. and Shoaib, M. (2024). The Dynamic Interpretation of the Principle of "Preparing Strength" (I'dad al-Quwwah): Its Conceptual Transformation from "Tethering of Horses" to Encompass Modern Defense Technologies and the Imperatives of Comprehensive Security. *Interdisciplinary Studies of Quran & Hadith*, 2(2), 225-248. doi: 10.30497/isqh.2025.248393.1054
https://DOI.org/10.30497/isqh.2025.248393.1054

الدراسات البينية في القرآن والحديث، السنة ٢، المجلد ٢، العدد ٦، الخريف ٢٠٢٤ / ١٤٤٦، صص.٢٢٥-٢٤٨

التفسير الديناميكي لمبدأ «إعداد القوة»: تحوله المفاهيمي من «رباط الخيل» ليشمل التقنيات الدفاعية الحديثة ومقتضيات الأمن الشامل

رضا ملازاده يامچي [*]، ميثم شعيب [**]

[*] زميل ما بعد الدكتوراه، جامعة فردوسي. (المؤلف المسؤول)

أوركيد: ٠٠٠٩-٠٠٠١-٦٥٩٣-٧٥٤٥ reza.mollazadehyamchi@alumni.um.ac.ir

[**] خريج الدكتوراه في قسم الفقه، كلية الإلهيات، جامعة فردوسي، مشهد، إيران.

أوركيد: ٠٠٠٠-٠٠٠٣-٣٩٠٤-٩٦٠١ m.shoaib@urd.ac.ir

الملخص

يُمثِّلُ المبدأُ القرآنيُّ «إعداد القوة»، المنصوصُ عليه في الآيةِ الستِّينَ من سورةِ الأنفالِ، أحدَ المفاهيمِ المحوريةِ والإستراتيجيةِ في منظومةِ الفكرِ الدفاعيِّ والأمنيِّ الإسلاميِّ. وتَستكشِفُ هذه الدراسةُ، عبرَ منهجِ تحليلِ المحتوى الكيفيِّ واستناداً إلى ذخيرةٍ واسعةٍ من التفاسيرِ القديمةِ والحديثةِ، التفسيرَ الديناميكيَّ والتحوُّلَ المفاهيميَّ العميقَ لهذا المبدأِ، انطلاقاً من تطبيقاتِهِ العسكريةِ الأوليةِ كـ«الرَّمْيِ» و«رِباطِ الخيلِ»، ووصولاً إلى استيعابِهِ التقنياتِ الدفاعيةَ المعاصرةَ وتشعُّبِهِ ليشملَ الأبعادَ غيرَ العسكريةِ للقوةِ. وتُبرِزُ النتائجُ أنَّ مفهومَ «القوة»، بفضلِ السِّعَةِ الدلاليةِ للفظِ وشموليةِ قاعدةِ «مَا اسْتَطَعْتُمْ»، قد اتَّسَمَ منذُ نشأتِهِ بمرونةٍ تُتيحُ له التلاؤمَ مع مقتضياتِ كلِّ حقبةٍ زمنيةٍ، لِيَغْدُوَ في أدبياتِ المفسرينَ المعاصرينَ متضمِّناً القدراتِ العسكريةَ الحديثةَ (بما في ذلك الصناعاتُ الدفاعيةُ المتقدمةُ)، بالإضافةِ إلى أركانِ القوةِ الاقتصاديةِ والعلميةِ والثقافيةِ والسياسيةِ. وقد ارتكزَ هذا التحوُّلُ المفاهيميُّ باستمرارٍ على الغايةِ الجوهريةِ المتمثلةِ في «الترهيبِ» – أيْ بناءُ قدرةِ ردعٍ فعَّالةٍ تجاهَ الأعداءِ المُعلَنينَ والتهديداتِ الكامنةِ وغيرِ المنظورةِ («آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ») – الأمرُ الذي رسَّخَ مبدأَ «إعداد القوة» كإستراتيجيةٍ متكاملةٍ لإرساءِ دعائمِ «الأمنِ الشاملِ» وتعزيزِ استدامتِهِ في المجتمعِ الإسلاميِّ. إنَّ هذا الوعيَ المتجدِّدَ بمقاصدِ المبدأِ لَيَحُثُّ الأمةَ الإسلاميةَ على توجيهِ استثماراتِها نحو كافةِ مُقوِّماتِ الاقتدارِ، والعملِ الدؤوبِ لبلوغِ الاكتفاءِ الذاتيِّ، بما يصونُ أمنَها وسيادتَها وكرامتَها على نحوٍ راسخٍ ومستدامٍ.

المفردات الرئيسية

إعداد القوة، رباط الخيل، الأمن الشامل، الردع (الترهيب)، التفسير الديناميكي.

نوع المقالة: علمية محكمة

تاريخ الوصول: ١٩ تشرين الأول ٢٠٢٤ تاريخ المراجعة: ٦ تشرين الثاني ٢٠٢٤ تاريخ القبول: ٢١ تشرين الثاني ٢٠٢٤

الناشر: جامعة الإمام الصادق عليه السلام

10.30497/isqh.2025.248393.1054

© المؤلف (المؤلفون)

الإحالة: ملازاده يامچي، رضا و شعيب، ميثم. (٢٠٢٤). التفسير الديناميكي لمبدأ «إعداد القوة»: تحوله المفاهيمي من «رباط الخيل» ليشمل التقنيات الدفاعية الحديثة ومقتضيات الأمن الشامل. *الدراسات البينية في القرآن والحديث*، ٢(٢)، ٢٢٥-٢٤٨. doi: 10.30497/isqh.2025.248393.1054

https://DOI.org/10.30497/isqh.2025.248393.1054

١.المقدمة

إشكالية البحث

إنَّ الأمرَ الإلهيَّ السامي، «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» (الأنفال: ٦٠)، بتعبئةِ المؤمنينَ أقصى طاقاتِهم لمُقابَلَةِ الأعداءِ، ليُشكِّلُ حجرَ الزاويةِ ومحورَ الارتكازِ في صَرْحِ الفكرِ الإستراتيجيِّ الدفاعيِّ والأمنيِّ في الإسلام. وفي خضمِّ عالمٍ معاصرٍ تموجُ به التعقيداتُ المتعاظمةُ على مسرحِ العلاقاتِ الدوليةِ، وتتوالى فيه الطفراتُ النوعيةُ في ميدانِ التقنياتِ الدفاعيةِ، ويتحوَّرُ فيه مفهومُ الأمنِ نفسُهُ متجاوزاً أُطُرَهُ العسكريةَ التقليديةَ ليغدوَ منظومةً «شاملةً» تتداخلُ فيها الأبعادُ الاقتصاديةُ والثقافيةُ والعلميةُ والاجتماعيةُ، فإنَّ بعثَ النظرِ في هذا المبدأِ القرآنيِّ الخالدِ، وسَبْرَ أغوارِ دلالاتِهِ العميقةِ، واستكشافَ آفاقِهِ التطبيقيةِ المستجدةِ، يُمثِّلُ ضرورةً معرفيةً ومنهجيةً لا محيدَ عنها. وليستْ هذه القراءةُ التأصيليةُ المتجددةُ مجرَّدَ استجابةٍ لمتطلباتِ الدفاعِ الآنيّةِ، بل هي سعيٌ حثيثٌ لاستنباطِ أُسُسِ رؤيةٍ قرآنيةٍ متكاملةٍ كفيلةٍ بتحقيقِ أمنٍ راسخٍ وشاملٍ؛ ذاك المفهومُ الذي ما فتئَ هو نفسُهُ يتطورُ ويتشكَّلُ، مما يخلعُ على هذه المقاربةِ البحثيةِ أهميةً استثنائيةً. ولقد تنبَّه صفوةٌ من المفسرينَ المعاصرينَ إلى هذه الدينامية الخلّاقةِ التي ينبضُ بها مفهومُ «القوةِ»، مُشدِّدين على حتميةِ تفاعُلِهِ الخلّاقِ مع معطياتِ كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فجاءتْ اجتهاداتُهم لتوسِّعَ من آفاقِهِ الدلاليةِ متجاوزةً به حدودَ العدّةِ الحربيةِ المعهودةِ، ليحتضنَ شتّى مظاهرِ الاقتدارِ الحديثِ، بما في ذلك القوةُ الصناعيةُ والإنتاجيةُ (المراغي، د.ت، ١٠: ٢٤؛ السبحاني، ٢٠١٦: ١٢: ٢٢٧) ، والمقدرةُ الاقتصاديةُ (مكارم الشيرازي، ٢٠٠٠، ٥: ٤٧١؛ فضل الله، ١٩٩٨، ١٠: ٤١٦) ، ناهيك عن النفوذِ السياسيِّ والمنارةِ الثقافيةِ (الصادقي الطهراني، ١٩٨٥، ١٢: ٢٧٥). إنَّ هذا الأفقَ التفسيريَّ الرحبَ لَيفتحُ البابَ على مصراعيهِ لاستجلاءِ ما تكتنزُهُ هذه الآيةُ الفارقةُ من إمكاناتٍ هائلةٍ لصياغةِ عقيدةٍ أمنيةٍ متكاملةِ الأركانِ، تستجيبُ بوعيٍ وبصيرةٍ لرهاناتِ العصرِ وتحدياتِهِ.

أهداف البحث وإشكالياته الرئيسة

تَرمي هذه الدراسة في مقصدها الأسمى إلى تتبع تجليات «التفسير الديناميكي» للمبدأ القرآني الأصيل «إعداد القوة» واستكناه أبعاده، مع الغوص في أعماق «تحوله المفاهيمي» الجذري، بدءا من تجسداته الأولية كـ«رباط الخيل»، مرورا باستيعابه منظومة «التقنيات الدفاعية المستجدة»، وانتهاء بتأصيل وشائجه العضوية بـ«مقتضيات الأمن الشامل» في إطارها الحضاري الراهن. وانطلاقا من هذه الغاية، يضطلع البحث بمهمة الإجابة عن التساؤلات المحورية التالية:

ما هي المصاديق التأسيسية، والأبعاد المتشعبة، والآفاق الدلالية الرحبة لمفهومي «القوة» و«رباط الخيل» على النحو الذي تبلورت به في ذخائر التراث التفسيري، وفي ضوء المعطيات السياقية لعصر التنزيل؟

كيف اعتور هذين المفهومين تطور نوعي واتساع في الأفق تجاوبا مع الاحتياجات المتنامية للمجتمعات الإسلامية، وتفاعلا مع الوثبات التقنية المتلاحقة عبر مختلف الحقب، وخاصة في واقعنا المعيشي؟

ما هي طبيعة العلائق وجسور التواصل وآليات التفاعل القائمة بين الأمر الإلهي المحكم: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»، ومقاصده الإستراتيجية المنصوص عليها: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»، من جهة، وبين المفهوم المعاصر لـ«الأمن الشامل» ومستلزماته الحيوية في عالمنا اليوم من جهة أخرى؟

رحاب التفاسير ومنزلة البحث

إن الآية الستين من سورة الأنفال لَتتبوأُ منزلة فريدة بين آي الذكر الحكيم إذ ما انفكت منذ إشراقة أنوار النبوة إلى عصرنا هذا، محطَّ عناية المفسرين ومرتعاً لخصيب قرائحهم ففاضت حول دقائق مفرداتها السامقة وأبعاد مراميها السديدة، أنظارٌ ثاقبةٌ وتأويلاتٌ ماتعةٌ متنوعةٌ. فلقد نذر لفهم هذه الآلية الربانية ثلة من جهابذة التأويل وأساطين البيان، يتقدمهم أئمة السلف الأفذاذ كالإمام الطبري في «جامع البيان» (١٩٩١، ١٠: ٢١-٥٠)، والقمي في «تفسيره» (١٩٨٤، ١: ٢٧٩)، وشيخ الطائفة الطوسي في «التبيان» (د.ت، ٥: ١٤٧-١٤٩)، تلَتهم أجيال من الخلف المحصين، وصولا إلى كوكبة من فرسان الدرس التفسيري المعاصر، من أمثال العلامة الطباطبائي في «الميزان» (١٩٧٠، ٩: ١١٤-١٢٤)، وسيد قطب في «في ظلال القرآن» (٢٠٠٤، ٣: ١٥٤٣-١٥٤٥)، والعلامة رشيد رضا في «المنار» (١٩٩٣، ١٠: ٦١-٦٩)، والمراغي في «تفسيره» (د.ت، ١٠: ٢٤-٢٦)، وإمام المتكلمين الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» (١٩٩٩، ١٥: ٤٩٩-٥٠١)، فضلا عن ثلة من أعلام الدراسات القرآنية الراهنة، كالشيخ مكارم الشيرازي في «الأمثل» (٢٠٠٠، ٥: ٤٧٠-٤٧٧)، والشيخ السبحاني التبريزي في «منية الطالبين» (٢٠١٦، ١٢: ٢٢٧-٢٣٢)، والسيد محمد حسين فضل الله في «من وحي القرآن» (١٩٩٨، ١٠: ٤٠٨-٤٢٠).

وتتوخى هذه الدراسة، إذ تستضيء بهذا التراث التفسيري العريق وتستلهمه، وتركّز بؤرتها على العنوان الذي تتصدر به هذه المقالة، أن ترقى عن مجرد عرض الأقوال واستعادتها، لتقدّم رؤية تحليلية نسقية متماسكة، تجلو «الدينامية التفسيرية» الكامنة، وتكشف عن أبعاد «التحول

المفاهيمي» العميق الذي اعترى مبدأ «إعداد القوة». أما الإضافة النوعية التي يطمح هذا البحث إلى تحقيقها، فتتمثل في اقتفاء دقيق لمسارات هذا التطور الدلالي والمفاهيمي، مع تسليط الضوء على آليات تكيّفه الخلاق مع منظومات الدفاع المستجدة، واستجلاء طبيعة العلائق العضوية التي تشده إلى مفهوم الأمن الشامل بتجلياته المعاصرة المتشابكة؛ وهي مقاربةٌ، وإن تكن بعض الإشارات العابرة في المدونات التفسيرية قد ألمحت إلى جوانب منها، فإنها، على حد اطلاعنا، لم تحظ بعدُ بمعالجة استقصائية شاملة تضع هذا الموضوع الجليل في موضعه اللائق به من الدرس والتحليل.

الإطار المنهجي للدراسة

يَنهضُ هذا البحثُ في بنيانِهِ المنهجيّ على مُقاربةِ تحليلِ المحتوى الكيفيّ، مُتخذاً من مدوَّنةٍ مُنتقاةٍ من النصوصِ التفسيريةِ التي عالجتْ الآيةَ الستينَ من سورةِ الأنفالِ مادةً لهُ ومرتكَزاً. وإذ يتغيَّا تحقيقَ هذا المرام فإنَّ المَدخَلَ الإجرائيَّ الأوَّلَ يقتضي استقصاءً دقيقاً لمُجملِ الآراءِ ووجهاتِ النظرِ المتصلةِ اتصالاً وثيقاً بالمفاهيمِ المفتاحيةِ التي تنبضُ بها الآيةُ الكريمةُ (أمثال «قوة»، و«رباط الخيل»، و«ترهبون به»، و«آخرين من دونهم»، و«ما تنفقوا»)، تُستخرَجُ من مظانّها الأصيلةِ في أمهاتِ كتبِ التفسيرِ، على أنْ يُصارَ تالياً إلى تصنيفِ هذه الحصيلةِ المعرفيةِ وفقَ أُسُسٍ واضحةٍ من التشابهِ والتباينِ، والتسلسلِ الزمنيّ، والطبيعةِ المنهجيةِ للمقارباتِ التفسيريةِ المتبعةِ.

ثُمَّ تَعقُبُ ذلك مرحلةٌ يُكرَّسُ فيها الجهدُ للتحليلِ المقارنِ لتلك الرؤى والأطروحاتِ التفسيريةِ، بغيةَ استجلاءِ مساراتِ التطورِ وديناميّاتِ التحوُّلِ المفاهيميّ الذي اعترى مفرداتِ الآيةِ ومقاصدَها العميقةَ، مع التركيزِ بوجهٍ أخصَّ على رصدِ مُنعطفاتِ تطورِها النوعيّ بدءاً من المصاديقِ التي شاعتْ في عصرِ التنزيلِ، وصولاً إلى الأشكالِ التي تتلاءمُ بها مع تحدياتِ العصرِ الراهنِ ومعطياتِهِ التقنيةِ المتسارعةِ، توطئةً لاستنباطِ الخصائصِ الجوهريةِ والسماتِ الفارقةِ لهذا المسارِ التجديديّ. وغايةُ هذا الجهدِ التحليليّ في نهايةِ المطافِ هي إماطةُ اللّثامِ عن الكيفيةِ التي أبدعَ بها المفسرونَ، وفي طليعتِهم المعاصرونَ، في الإفادةِ من وعيِهم الثاقبِ بروحِ الرسالةِ القرآنيةِ الخالدةِ واستيعابِهم العميقِ لرهاناتِ العصرِ ومقتضياتِهِ، وذلك في سبيلِ إخصابِ دلالاتِ هذه المفاهيمِ الإستراتيجيةِ وتعميقِ أغوارِها، وتوسيعِ آفاقِها الاجتهاديةِ والتطبيقيةِ.

الدراسات السابقة

إنّ مبدأ «إعداد القوة» في سورة الأنفال (٦٠) قد شكّل عبر العقود محوراً لعددٍ من الدراسات الأكاديمية والجهود التفسيرية، التي يمكن تصنيفها في ثلاث مسارات رئيسية:

أ. **المسار التفسيري الفقهي التقليدي:** تركزت الغالبية العظمى من الدراسات التفسيرية التقليدية، مثل ما ورد في [المصدر ١: مثال: **التفسير الكبير** للرازي، أو **الميزان** للطباطبائي]، على البُعد اللغوي والفقهي للمفهوم حيث فُسّرت «القوة» في سياقها التاريخي الأولي لتشمل الأدوات القتالية المعاصرة للنزول، كـ«الرَّمْيِ» و«رِباطِ الخيلِ». ورغم سعة التفسير اللفظي لـ«ما استطعتم»، إلا أن هذه الدراسات غالباً ما اقتصرت على الأحكام الشرعية المتعلّقة بالجهاد وغفل عن تناول **التحوّل المفاهيمي الديناميكي** للقوة في سياق الأمن الحديث.

ب. **المسار العسكري الإستراتيجي الحديث:** تناولت بعض الأبحاث، خاصة تلك المكتوبة باللغة الإنجليزية والفارسية، تطبيق المبدأ في ضوء التقنيات العسكرية المعاصرة. فركزت دراسات مثل [المصدر ٢: مثال: **مقالة في الإستراتيجية الدفاعية**] على أهمية القوة الرادعة (الردع) والتكنولوجيا المتقدمة، وربطت «إعداد القوة» بمفاهيم الأمن القومي الحديث. ومع ذلك، تبقى هذه الدراسات في الغالب **وصفية أو تطبيقية** وتفتقر إلى **العمق التفسيري والأصولي** الذي يبرهن على أن هذا التحول المفهومي متأصل في النص القرآني نفسه، لا مجرد إسقاط خارجي عليه.

ج. **المسار التحليلي لشمولية المفهوم:** حاولت مجموعة ثالثة، مثل [المصدر ٣: مثال: **رسالة جامعية حول أبعاد القوة الشاملة**] توسيع نطاق المفهوم ليشمل الأبعاد غير العسكرية كالقوة الاقتصادية والثقافية والسياسية. ورغم شموليتها، فإنها في الغالب لم تنجح في تقديم **إطار نظري متكامل** يشرح **كيفية انتقال** مفهوم «القوة» من الحالة التقليدية إلى الحالة الشاملة، مكتفية بذكر الأبعاد المختلفة دون تحليل ديناميكي للتحوّل المفاهيمي.

ابتكار المقالة

بناءً على النقد الموجّه للدراسات السابقة، يكمن ابتكار هذه المقالة (التفسير الديناميكي لمبدأ «إعداد القوة») ووجه تميّزها في الجوانب التالية:

١. **المقاربة الأصولية للتحوّل:** لا تكتفي المقالة **بوصف** شمولية القوة، بل تستخدم منهج تحليل المحتوى الكيفي (المذكور في الملخص) **لإثبات أصول هذا التحوّل المفاهيمي** انطلاقاً من المبدأ النصي للآية (الأنفال ٦٠). وهي تبرهن على أن مفهوم «القوة» في الآية يحمل **مرونة دلالية أصيلة** تجعل تحوّله من «رباط الخيل» إلى التقنيات المعاصرة **تحوّلاً نصياً داخلياً**، وليس مجرد تطبيق حديث.

٢. **التركيز على المقتضيات غير العسكرية (إعادة تعريف الإعداد):** تتجاوز المقالة النظرة التقليدية والحديثة التي تركّز على البُعد العسكري الصرف، وتركّز على **مقتضيات الأمن**

الشامل (الشأن غير العسكري). وهي بذلك تقدم إطاراً نظرياً يُعيد تعريف عملية «الإعداد» نفسها، ليتجاوز الإعداد المادي الصرف إلى الإعداد الشامل للأمة، وهو ما لم تتناوله الدراسات السابقة بهذا **العمق التحليلي والمنهج الأصولي**.

الأسس النظرية للبحث

لقد تبوأت الآيةُ الكريمةُ «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» (الأنفال: ٦٠)، منذ إشراقةِ المدنيةِ الإسلاميةِ الأولى، مكانةً محوريةً في صميمِ الخطابِ التفسيريّ، وشغلتْ حيّزاً معتبراً من اجتهاداتِ الأئمةِ الأعلامِ الراميةِ إلى استكناهِ أبعادِ التأهبِ الدفاعيّ في المجتمعِ المسلمِ وتحديدِ تجلياته المتعددة. وإنَّ الغوصَ في لُجَجِ تلك الرؤى الثاقبةِ لَيُفضي بنا إلى حقيقةٍ مؤدّاها أنَّ المفهومينِ النواةَ، «قوة» و«رباط الخيل»، برغمِ أنَّ فهمَهما الابتدائيَّ قد تبلورَ في سياقِ مُعطياتِ عصرِ التنزيلِ ووسائلِهِ المتاحةِ، إلا أنهما قد أُودِعا منذُ النشأةِ الأولى طاقاتٍ دلاليةٍ وحركيةٍ دفينةٍ، فتحتْ مِصراعَيْها لاحتضانِ التكييفِ الخلّاقِ مع ما استجدَّ من تحدياتِ العصورِ اللاحقةِ وما أملتهُ من ضروراتٍ.

سبر أغوار مصاديق «قوة» في الرؤية التفسيرية الباكرة

لقد توسَّعَ أعلامُ التفسيرِ الأوائلِ في تبيانِ تجلياتِ مفهومِ «قوة»، مُدلينَ بدلوهم في بحرٍ زاخرٍ من المصاديقِ والأمثلةِ المتنوعةِ الأبعادِ، التي يَسَعُ الناظرَ الفاحصَ أنْ يُبوّبَها ضمنَ حقولٍ دلاليةٍ جامعةٍ، لكلٍّ منها سماتُهُ الخاصةُ. وإنَّ هذا الثراءَ في التحديداتِ المصداقيةِ لَيَشي، في حدّ ذاتِهِ، بالمدى الرحبِ الذي اتسمَ به هذا المفهومُ الجوهريُّ منذُ اللحظةِ الأولى لتنزيلِهِ، وبامتناعِهِ الأصيلِ عن الانحصارِ في قوقعةِ مصداقٍ يتيمٍ أوحدَ.

مفهوم «قوة» بوصفها عُدَّةَ الحربِ التقليديةَ وعتادَها الأصيل

لقد ذهبَ شطرٌ وافرٌ من أعلامِ التفسيرِ في صدرِ الإسلامِ إلى أنَّ مفهومَ «قوة» يتجلّى في المقامِ الأولِ في عُدَدِ الحربِ وعتادِها المعهودِ في زمانِهم. ويأتي في صدارةِ هذهِ المصاديقِ مصطلحُ «السلاحِ» بمفهومِهِ الشاملِ؛ فمما أُثِرَ عن ابنِ عباسٍ أنَّ المرادَ بها «من سلاح» (نقلاً عن الفيروزآبادي، د.ت، ص ١٥١)، وقال أبو حمزةَ الثمالي إنها «السلاح» (١٩٩٩: ص ١٨٦)، وذهب مقاتلُ بنُ سليمانَ إلى أنها «يعنى السلاح» (٢٠٠٢: ٢: ١٢٣)، وفي تفسيرِ القمي هي «السلاح» (١٩٨٤: ١: ٢٧٩). وكذلك نُقِلَ عن السُّدِّيّ أنَّ «قوة» هي «السلاحُ» (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ ابن أبي حاتم، ١٩٩٨: ٥: ١٧٢٢). وهذه الرؤيةُ تَعتبرُ «قوة»، في منطلقِها، تجسيداً للإمكاناتِ الماديةِ الصلبةِ والتجهيزاتِ الأساسيةِ

اللازمةِ لخوضِ غمارِ النِّزالِ. وإلى جانبِ هذا الأفقِ الدلاليّ العام يتبوأُ «الرَّمْيُ» مكانةً سامقةً، بوصفِهِ أحدَ أبرزِ تجلياتِ «قوة» وأشدِّها بأساً، سواءٌ في هديِ السنّةِ النبويةِ المطهّرةِ أم في رحابِ المدوناتِ التفسيريةِ التي استنارتْ بأنوارِها. فقد تواترتِ المأثوراتُ النبويةُ بأنَّ النبيَّ الأكرمَ صلى الله عليه وآله قد فَسَّرَ «قوة» تفسيراً صريحاً، إذ قال: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»، و«قَالَهَا ثَلَاثًا» تأكيداً على منزلتِهِ الرفيعةِ وأهميتِهِ الإستراتيجيةِ (انظر على سبيلِ المثالِ: الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ العياشي، ١٩٦٠: ٢: ٦٦؛ السمرقندي، ١٩٩٥: ٢: ٢٩؛ الطبراني، ٢٠٠٨: ٣: ٢٧١؛ القرطبي، ١٩٤٥: ٨: ٣٥؛ ابن كثير، ١٩٩٨: ٤: ٧١). ولقد كانَ لهذا الإرشادِ النبويّ البليغِ صداهُ العميقُ في أنْ يذهبَ جِلّةٌ من المفسرينَ، كالفرّاءِ الذي روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّ «الْقُوَّةَ: الرَّمْيُ» (١٩٨٠: ١: ٤١٦)، وعقبةَ بنِ عامرٍ، فارسِ هذا الحديثِ وراويتِهِ (انظر على سبيلِ المثالِ: الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ مكارم الشيرازي، ٢٠٠٠: ٥: ٤٧١)، إلى اعتبارِ «الرَّمْيِ» المصداقَ الأمثلَ والأكملَ لمفهومِ «قوة». وتتأتّى أهميةُ «الرَّمْيِ» من كونِهِ الوسيلةَ التي كانتْ تُمكِّنُ من النيلِ من العدوِّ عن بُعدٍ، ممَّا خَوَّلَهُ دوراً إستراتيجياً حاسماً في فنونِ القتالِ وخططِهِ السائدةِ آنذاك (الشعراوي، ١٩٩١: ٨: ٤٧٧٥). كذلك، أُدرِجَتِ «الحصونُ» و«المعاقلُ المنيعةُ» ضمنَ مصاديقِ «قوة» في طائفةٍ من التفاسيرِ الباكرةِ. ويُعدُّ التابعيُّ الجليلُ عكرمةُ من بينِ القائلينَ بأنَّ «قوة» تُفيدُ معنى «الحصونِ»، إذ قال: «الْحُصُونُ» (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ ابن أبي حاتم، ١٩٩٨: ٥: ١٧٢٢؛ السمرقندي، ١٩٩٥: ٢: ٢٩؛ الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ الزمخشري، ١٩٨٧: ٢: ٢٣٢). ويَشِي هذا التأويلُ بأنَّ مفهومَ «قوة» لم يكنْ وقفاً على أدواتِ الكرِّ والهجوم بل كانَ يستوعبُ في رحابِهِ التدابيرَ الوقائيةَ والتحصيناتِ الدفاعيةَ. ومما يُستطرفُ في هذا السياق: ما يُروى عن ابنِ سيرينَ أنَّهُ، في معرضِ فتواهُ بشأنِ وصيةٍ ماليةٍ لـ«الحصونِ»، وجَّهَها نحو ابتياعِ الخيلِ للجهادِ والمرابطةِ، قائلاً: «هِيَ الْخَيْلُ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ: "وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى تَجَنُّبِي الرَّدَى إِنَّ الْحُصُونَ الْخَيْلُ لَا مَدَرُ الْقُرَى"» (أي أنَّ المعاقلَ الحقيقيةَ هي الجيادُ الصافناتُ، لا الأسوارُ الطينيةُ للقرى الهامشيةِ) (الرازي، ١٩٩٩: ١٥: ٤٩٩؛ الفاضل المقداد، ١٩٩٤: ١: ٣٨٨). وتُجلي هذه الرؤيةُ الثاقبةُ منزلةَ الخيلِ ليس فقط كأداةٍ للنزالِ والمواجهةِ، بل أيضاً كركيزةٍ أساسٍ في منظومةِ الدفاعِ والتحصيناتِ الإستراتيجيةِ. وفضلاً عما سلفَ، فقد حفلتْ مدوناتُ التفسيرِ المتقدمةِ بذكرِ مصاديقَ أُخَرَ لمفهومِ «قوة». من ذلك ما أُثِرَ عن الإمامِ الصادقِ عليه السلام إذ قال في تفسيرها: «سَيْفٌ وَتُرْسٌ» (العياشي، ١٩٦٠: ٢: ٦٦؛ اللاهيجي، ١٩٩٤: ٢: ٢٠٩؛ البحراني، ١٩٩٤: ٢: ٧٠٦). وتُبرهنُ هذه الشواهدُ المتنوعةُ على

السَّعةِ الدلاليةِ لمفهومِ «قوة» وقدرتِهِ على استيعابِ مختلفِ أدواتِ الحربِ ووسائلِ الدفاعِ التي كانتْ معهودةً في تلك الحقبةِ.

مفهوم «قوة» بوصفها من مقوماتِ الاقتدارِ غيرِ المادية

ومما يسترعي الانتباهَ في هذا المضمارِ، أنَّ مفهومَ «قوة» في بعضِ التأويلاتِ التفسيريةِ قد تجاوزَ حدودَ الأدواتِ الماديةِ المحضةِ، ليمتدَّ ويشملَ عناصرَ معنويةً للاقتدارِ. فعلى سبيلِ المثالِ، أشارَ الطبرسيُّ إلى قولٍ يذهبُ إلى أنَّ «قوة» تعني «اتفاقَ الكلمةِ والثقةَ باللهِ تعالى والرغبةَ في ثوابِهِ» (الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ السبزواري، ١٩٨٥: ٣: ٢٩٦). وتُبرزُ هذه الرؤيةُ أهميةَ التماسكِ الداخليّ، وعمقِ الإيمانِ، وقوةِ الدافعِ الروحيّ، بوصفها أركاناً جوهريةً للاقتدارِ الشاملِ. وفي سياقٍ متصلٍ، نجدُ في روايةٍ أخرى، وردتْ في كتابِ «من لا يحضرهُ الفقيهُ» ونقلتها بعضُ التفاسيرِ، أنَّ «الخِضابَ بالسوادِ» (أي صبغَ الشَّعرِ واللحيةِ باللونِ الأسودِ) قد عُدَّ كذلك من مصاديقِ «قوة» (الحويزي، ١٩٩٤: ٢/ ١٦٤؛ البحراني، ١٩٩٤: ٢: ٧٠٦؛ مكارم الشيرازي، ٢٠٠٠: ٥: ٤٧١). ويُمكنُ أنْ يُحملَ هذا الأمرُ على إرادةِ إلقاءِ المهابةِ والرَّهبةِ في قلوبِ الأعداءِ من خلالِ إظهارِ مظهرِ الشبابِ والقوةِ، ممَّا يُشيرُ إلى أنَّ الجوانبَ النفسيةَ والتأثيرَ المعنويَّ في العدوِّ كانتْ أيضاً منظورةً في مفهومِ «قوة». وعلى ذاتِ المنوالِ، يُروى أنَّ مجاهداً، وهو يتأهبُ للغزوِ ويحملُ متاعَهُ وزادَهُ (الجوالق)، قد اعتبرَ ذلك أيضاً من مصاديقِ «قوة» (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ ابن أبي حاتم، ١٩٩٨: ٥: ١٧٢٢؛ الثعلبي، ٢٠٠١: ٤: ٣٦٩؛ ابن عطية، ٢٠٠١: ٢: ٥٤٥). وتُظهِرُ هذه الشواهدُ بجلاءٍ مدى السَّعةِ الدلاليةِ التي اتسمَ بها لفظُ «قوة» منذُ بواكيرِ التفسيرِ، وعدمَ اقتصارِهِ على مجردِ الأسلحةِ المتعارفةِ آنذاك.

شمولية مفهوم «قوة» في منظور المتقدمين ودلالاتُها المتجددة

يحتلُّ القولُ بشموليةِ مفهومِ «قوة»، الذي يذهبُ إلى أنَّهُ يستوعبُ كلَّ ما من شأنِهِ أنْ يُعزِّزَ القدرةَ على مواجهةِ العدوِّ، مكانةً مركزيةً في مدوناتِ التفسيرِ المتقدمةِ، وقد أسَّسَ هذا الاتجاهُ أرضيةً خصبةً للدينامية التفسيريةِ في العصورِ اللاحقةِ. وفي هذا السياق يُصرِّحُ الإمامُ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ بأنَّ الأمرَ الإلهيَّ بإعدادِ «قوة» قد جاءَ بصيغةٍ عامةٍ، ولا مسوّغَ لتقييدِهِ بمعنى خاصٍّ من بينِ مختلفِ المعاني التي يحتملُها اللفظُ (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١). ورداً على مَنْ قد يستشكلُ بتفسيرِ النبيِّ صلى الله عليه وآله لـ«قوة» بأنَّها «الرَّمْيُ»، يُوضحُ الطبريُّ أنَّهُ وإنْ صحتْ هذه الروايةُ، فلا دليلَ فيها على أنَّ المقصودَ هو «الرَّمْيُ» حصراً دونَ سائرِ ما يندرجُ تحتَ مفهومِ «قوة»؛ بل إنَّ

«الرَّمْيَ» هو أحدُ مصاديقِ «قوة»، ولم يَرِدْ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ما يفيدُ أنَّ «قوة» تقتصرُ على «الرَّمْيِ» دونَ غيرِهِ (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١). ثمَّ يُضيفُ الطبريُّ بأنَّ السيفَ والرمحَ والحربةَ، وكلَّ ما يُعينُ على قتالِ المشركينَ، يندرجُ ضمنَ مفهومِ «قوة»، سواءٌ أكانَ في منزلةِ «الرَّمْيِ» أم فاقَهُ تأثيراً (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١). وهذا المنهجُ التفسيريُّ، الذي تبنّاهُ مفسرونَ آخرونَ بعباراتٍ متقاربةٍ – فعلى سبيلِ المثالِ، يرى ابنُ عطيةَ في «المحررِ الوجيزِ» صوابَ القولِ بعمومِ لفظِ «قوة»، معتبراً أنَّهُ يشملُ المراكبَ والسلاحَ والألبسةَ الحربيةَ وسائرَ الأدواتِ والنفقاتِ (ابن عطية، ٢٠٠١: ٢: ٥٤٥) ، كما يعتبرُهُ الفخرُ الرازي في «التفسيرِ الكبيرِ» لفظاً عاماً يشملُ كلَّ ما يُوجبُ التقويةَ في الحربِ على العدوِّ وكلَّ ما هو من آلاتِ الجهادِ (الرازي، ١٩٩٩: ١٥: ٤٩٩) – يُبرهنُ بوضوحٍ على أنَّ القدرةَ على تكييفِ مفهومِ «قوة» مع مختلفِ الأدواتِ والأساليبِ المستجدةِ والمتنوعةِ لمواجهةِ العدوِّ، كانتْ ماثلةً في أفهامِ المفسرينَ منذُ العصورِ الأولى، وهو ما مهَّدَ السبيلَ أمامَ حركيةِ التأويلِ وتجدُّدِهِ في الأجيالِ اللاحقةِ.

«رِبَاطُ الخيلِ» رمزاً للتأهبِ والقدرةِ الحركيةِ العسكريةِ في عصرِ التنزيلِ

إلى جانبِ المفهومِ الأمِّ لـ«قوة»، تُفردُ الآيةُ الكريمةُ بالتنويهِ «رِبَاطَ الْخَيْلِ». ويُعنى هذا المبحثُ باستجلاءِ كُنْهِ مدلولِ «رباطِ الخيلِ» ومكانتِهِ السامقةِ في مدوناتِ التفسيرِ الباكرةِ. وفيما يتصلُ بتعيينِ مصداقِ «رباطِ الخيلِ»، نلحظُ أنَّ طائفةً من المفسرينَ الأوائلِ، وفي مقدمتِهم ابنُ عباسٍ كما جاءَ في «تنويرِ المقباسِ» (الفيروزآبادي، د.ت، ص ١٥١) ، والفرّاءُ في «معانيهِ» (١٩٨٠: ١: ٤١٦) ، وعكرمةُ فيما أوردهُ الطبريُّ (١٩٩١: ١٠: ٢١) ، قد جنحوا إلى تفسيرِهِ بـ«إناثِ الخيلِ»، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى ما لها من دورٍ حيويٍّ في التوالدِ وتكثيرِ نسلِ الجيادِ. وفي مقابلِ ذلك، يُؤثَرُ عن مجاهدٍ أنَّهُ تأوَّلَ «قوة» (التي قد تستوعبُ الخيلَ في بعضِ السياقاتِ) بأنَّها «ذكورُ الخيلِ» (ابن أبي حاتم، ١٩٩٨: ٥: ١٧٢٢) ، ويُحتملُ أنْ يكونَ منطلقُ هذا التأويلِ ما عُرِفَ عن الفحولِ من بأسٍ أشدَّ وقدرةٍ فائقةٍ في معتركِ النِّزالِ. بيدَ أنَّ المتأمِّلَ في مجملِ أقوالِ المفسرينَ يخلصُ إلى أنَّ جمهورَهم قد رأى في «رباطِ الخيلِ» إشارةً أصيلةً إلى مبدأِ اقتناءِ الجيادِ وتعهُّدِها بالإعدادِ والتجهيزِ للذَّوْدِ عن حياضِ الدينِ، بمعزلٍ عن تحديدِ جنسٍ بعينِهِ. وإنَّ إفرادَ «رباطِ الخيلِ» بالذكرِ، عَقِبَ لفظِ «قوة» الجامعِ، لَيُنبئُ عن المنزلةِ الرفيعةِ التي كانتْ للخيلِ بوصفِها إحدى الدعائمِ الرئيسةِ للحربِ، ورمزاً شامخاً للاقتدارِ والقدرةِ على الأهبةِ الحركيةِ والمناورةِ العسكريةِ في تلك الحقبةِ الفارقةِ. وفي هذا الصددِ، يُنوّهُ الطبرسيُّ في «مجمعِ البيانِ» بأنَّ «رباطَ الخيلِ» يُعدُّ من آكدِ أدواتِ الجهادِ وأمضاها، معتبراً هذا العطفَ الخاصَّ على العامِّ شبيهاً بعطفِ جبريلَ وميكائيلَ على الملائكةِ، إعظاماً لشأنِهِ وإشادةً

بمكانتِهِ (الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ اللاهيجي، ١٩٩٤: ٢: ٢٠٩). ولم تكنْ منزلةُ الخيلِ مقصورةً على ساحاتِ الوغى فحسب، بل كانتْ لها وظيفةٌ إستراتيجيةٌ في حراسةِ الثغورِ وصونِها (المرابطةِ)، وفي بثِّ الرعبِ والرهبةِ في أفئدةِ المتربصينَ (مكارم الشيرازي، ٢٠٠٠: ٥: ٤٧٠). وقد استفيضَ في المأثوراتِ النبويةِ بيانُ فضلِ اتخاذِ الخيلِ وإعدادِها للجهادِ، ومن ذلك ما رُوِيَ من أنَّ «ظُهُورَهَا لَكُمْ عِزٌّ وَأَجْوَافَهَا كَنْزٌ» (أي أنَّ ظهورَها لكم مدعاةٌ للعزةِ والمنعةِ، وبطونَها لكم كنزٌ بالإشارةِ إلى بركةِ نسلها وقدرتِها على التوالدِ) (الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ الحويزي، ١٩٩٤: ٢: ١٦٥). وتُجلي هذه التوجيهاتُ المتضافرةُ، بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ، المكانةَ المحوريةَ التي تبوأها «رباطُ الخيلِ» في صميمِ الإستراتيجيةِ الدفاعيةِ الإسلاميةِ في بواكيرِ عهدِها، بوصفِهِ الرمزَ الأبرزَ للقوةِ والقدرةِ الفائقةِ على الحركةِ والتأهبِ العسكريِّ الشاملِ.

.مسارُ التحوُّلِ المفاهيميِّ لمبدأِ «إعداد القوة» وتكيُّفُهُ مع مستجداتِ التقنياتِ الدفاعيةِ

كما سبقتِ الإشارةُ في المبحثِ المتقدم فإنَّ مفهومَ «إعداد القوة»، كما تجلّى في الآيةِ الستينَ من سورةِ الأنفالِ، قد انطوى منذُ إشراقاتِ التفسيرِ الأولى على سعةٍ دلاليةٍ رحبةٍ، أتاحتْ لهُ أنْ يستوعبَ تأويلاتٍ متجددةً تتناغمُ مع مقتضياتِ كلِّ عصرٍ ورهاناتِهِ المتغيرةِ. ويُعنى هذا الفصلُ بتتبُّعِ معالمِ هذا التحوُّلِ المفاهيميِّ، وبخاصةٍ في مرآةِ الطفراتِ التقنيةِ التي شهدتها الساحةُ العسكريةُ، وفي ضوءِ ما استقرَّ عليهِ نظرُ المفسرينَ وأهلِ الفكرِ في العصرِ الحديثِ.

ديناميةُ قاعدةِ «مَا اسْتَطَعْتُمْ»: من «الرَّمْيِ» إلى منظوماتِ التقنيةِ المعقدةِ

إنَّ واحداً من ألمعِ تجلياتِ الحركيةِ التأويليةِ الكامنةِ في الأمرِ الربانيِّ بإعدادِ «قوة»، يتجسَّدُ في ذلك الإطلاقِ والعمومِ اللذين يَسِمانِ قولَهُ تعالى: «مَا اسْتَطَعْتُمْ» (أي كلُّ ما يندرجُ تحتَ وُسعِكم ويدخلُ في دائرةِ طاقتِكم). ولقد أطبقَ جُلُّ المفسرينَ، سلفاً وخلفاً، على أنَّ تخصيصَ النبيِّ الأكرمِ صلى الله عليه وآله لبعضِ المصاديقِ بعينِها، كـ«الرَّمْيِ»، بالذكرِ، لم يكنْ إلا من بابِ بيانِ أبرزِ صورِ «قوة» وأنفذِها أثراً أو أيسرِها تحصيلاً في سياقِهِ الزمنيِّ، لا من بابِ قصرِ مفهومِ «قوة» على ذلك المصداقِ وحصرِهِ فيهِ دونَ ما عداهُ. وفي هذا المقامِ يُنبِّهُ الإمامُ الفخرُ الرازي (١٩٩٩: ١٥: ٤٩٩) والقاضي البيضاويُّ (١٩٩٧: ٣: ٦٥) إلى أنَّ تخصيصَ النبيِّ صلى الله عليه وآله لـ«الرَّمْيِ» بالبيانِ يُشبهُ قولَهُ «الْحَجُّ عَرَفَةُ»، وهو قولٌ لا يُلغي سائرَ أركانِ الحجِّ، وإنَّما يُعلي من شأنِ الركنِ الأعظمِ ويُبرزُهُ؛ وعلى هذا النسقِ فإنَّ «قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "الْقُوَّةُ هِيَ الرَّمْيُ" لَا يَنْفِي كَوْنَ غَيْرِ الرَّمْيِ مُعْتَبَرًا... بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَذْكُورَ جُزْءٌ شَرِيفٌ مِنَ الْمَقْصُودِ، فَكَذَا هَاهُنَا». ومن شأنِ هذهِ القراءةِ العميقةِ

أنْ تَبسُطَ نطاقَ «مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ليشملَ في رحابِهِ كلَّ ما يُستَجدُّ في أيِّ عصرٍ من مقوماتِ الاقتدارِ ووسائلِ الدفاعِ الناجعةِ. وعليهِ، فإنَّ قاعدةَ «مَا اسْتَطَعْتُمْ» تُوجبُ على الأمةِ المسلمةِ في كلِّ طورٍ من أطوارِ تاريخِها أنْ تنهضَ، بعدَ استكناهِ أحدثِ التقنياتِ وأكثرِها فعاليةً في ميدانِ الدفاعِ، إلى امتلاكِ ناصيتِها وتوطينِها، ما وسِعَها الجهدُ وما أطاقتهُ المقدرةُ. ويمثّلُ هذا المبدأُ الأصيلُ، كما يُقرّرُ العلامةُ رشيد رضا في تفسيرِ «المنارِ» (١٩٩٣: ١٠: ٦١)، منهاجاً إلهياً شاملاً ودستوراً خالداً للأمةِ الإسلاميةِ في كلِّ آنٍ ومكانٍ، ويتخذُ امتثالُهُ العمليُّ صوراً تتفاوتُ بتفاوتِ «دَرَجَاتِ الِاسْتِطَاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِحَسَبِهِ».

تجلياتُ مفهومَي «قوة» و«رباط الخيل» في ضوءِ الرؤى المعاصرةِ والتقنياتِ المستجدةِ

انطلاقاً من هذا الأساسِ التأويليِّ المتسمِ بالدينامية، فقد عمدَ ثُلّةٌ من المفسرينَ وأهلِ النظرِ في العصرِ الحديثِ إلى تكييفِ مصاديقِ «قوة» و«رباطِ الخيلِ» بما يتلاءمُ مع ما استجدَّ من أدواتِ العصرِ ومقتضياتِهِ الحضاريةِ. ففيما يختصُّ بمفهومِ «قوة»، تَحتضنُ الرؤى المعاصرةُ طيفاً رحباً من وسائلِ الاقتدارِ العسكريِّ المُستحدثةِ. ومن أبرزِ هذهِ التجلياتِ، بناءُ منظوماتٍ متكاملةٍ للمدفعيةِ الثقيلةِ (المدافع)، وتشكيلُ أسرابٍ من الطائراتِ المقاتلةِ (الطيارات)، وتطويرُ القنابلِ بأنواعها، وحشدُ الأرتالِ من الدباباتِ، وإنشاءُ الأساطيلِ البحريةِ والغواصاتِ، فضلاً عن حتميةِ امتلاكِ ناصيةِ المعارفِ التقنيةِ والصناعيةِ التي تُفضي إلى إنتاجِ هذهِ المعداتِ وتطويرِها (المراغي، د.ت، ١٠: ٢٤ ؛ رشيد رضا، ١٩٩٣: ١٠: ٦٤-٦٥ ؛ السبحاني، ٢٠١٦: ١٢: ٢٢٧؛ حوى، ٢٠٠٣: ٤: ٢١٩٠ ؛ الزحيلي، ١٩٩٠: ١٠: ٤٨-٥٢). وفي هذا السياق يُصرحُ كلٌّ من رشيد رضا (١٩٩٣: ١٠: ٦١) والآلوسي (١٩٩٤: ٥: ٢٢٠) بأنَّ مفهومَ «الرَّمْيِ» في العصرِ الراهنِ يستوعبُ كلَّ مقذوفٍ، بما في ذلك طلقاتُ البنادقِ (البندق) وقذائفُ المدافعِ، وأنَّ مبدأَ المقابلةِ بالمثلِ مع الأعداءِ الذينَ يتوسلونَ بهذهِ الأدواتِ يظلُّ فريضةً شرعيةً. كما يُلحُّ سيد قطب على شموليةِ مفهومِ «قوة» وقدرتِهِ على استيعابِ كافةِ أشكالِ القوةِ وأسبابِها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ (قطب، ٢٠٠٤: ٣: ١٥٤٣). ويُلمّحُ محمد تقي المدرسي (١٩٩٨: ٤: ٧٨) إلى أنَّ الطاقاتِ البدنيةَ ينبغي أنْ تتجسدَ في صورةِ أسلحةٍ وأدواتٍ وصناعاتٍ متطورةٍ. أما الشيخُ الشعراوي (١٩٩١: ٨: ٤٧٧٥-٤٨٠٩)، فيُفصّلُ القولَ في هذا المقام متتبعاً بإسهابٍ مسارَ تطورِ الأسلحةِ منذُ العهدِ النبويِّ (كالسهمِ والرمحِ والسيفِ) وصولاً إلى الحقبةِ المعاصرةِ (كالمدفعيةِ والطائراتِ والصواريخِ)، مشدداً على أنَّ الغايةَ القصوى تظلُّ هي امتلاكَ أسلحةٍ ذاتِ مدى أبعدَ، كفيلةٍ بتحقيقِ الغلبةِ على العدوِّ. بل إنَّهُ يرى في تكييفِ قدرةِ محركاتِ المركباتِ بما يُصطلحُ عليهِ بـ"قوةِ الحصانِ" إشارةً دقيقةً إلى الإعجازِ الأدائيِّ للقرآنِ المجيدِ في لفتِهِ

الأنظارَ إلى «الخيلِ». وفيما يتعلقُ بمفهومِ «رباطِ الخيلِ»، فإنهُ وإنْ كانتِ الجيادُ في سالفِ العصرِ والأوانِ تمثّلُ الرمزَ الأبرزَ للقدرةِ الحركيةِ والسطوةِ العسكريةِ، فإنَّ المفسرينَ المعاصرينَ قد وسَّعوا من آفاقِ هذا المفهومِ بما ينسجمُ مع مقتضياتِ الزمانِ وواقعِهِ. فـ«رباطُ الخيلِ» في المنظارِ المعاصرِ لا ينحصرُ في مجردِ اقتناءِ الأفراسِ، بل يمتدُّ ليشملَ المفهومَ الأرحبَ للتأهبِ اللوجستيّ المتكاملِ، والقدرةَ الفائقةَ على التحريكِ الخاطفِ للقواتِ، وحيازةَ أحدثِ منظوماتِ النقلِ البريّ والجويّ والبحريّ، وذلك بهدفِ نقلِ الجيوشِ وتأمينِ خطوطِ إمدادِها واحتلالِ معاقلِ العدوِّ ودكِّها بعدَ أنْ تُفلَّ شوكتُهُ الأولى. وإنَّ المكانةَ التاريخيةَ التي تبوأتها الخيلُ كأيقونةٍ للقدرةِ على الحركةِ والمناورةِ، وضرورةَ تكييفِ مفهومِ «قوة» مع الأدواتِ المستجدةِ، لَتُحتِّمانِ هذا التطورَ المفاهيميَّ الذي لا محيدَ عنهُ. وفي هذا السياق يذهبُ الشيخُ الشعراوي (١٩٩١: ٨: ٤٨٠٩-٤٨١٠) إلى أنَّ «رباطَ الخيلِ» في الماضي السحيقِ يُوازي في عصرِنا الحاضرِ «المدرعاتِ» (القواتِ المدرعةَ) التي تضطلعُ بمهمةِ السيطرةِ على الأرضِ وتثبيتِ أقدامِها فيها عَقِبَ الضرباتِ التمهيديةِ (سواءٌ أكانتْ بـ«الرَّمْيِ» في الأزمنةِ الغابرةِ أم بالأسلحةِ بعيدةِ المدى في أيامنا هذهِ). ويُبرهنُ هذا التحوُّلُ المفاهيميُّ على أنَّ جوهرَ «رباطِ الخيلِ»، المتمثلَ في إيجادِ القدرةِ على الحضورِ الخاطفِ والمؤثرِ في قلبِ المعركةِ وصونِ المواقعِ الإستراتيجيةِ، لا يزالُ حياً نابضاً، وإنْ استبدلَ مصاديقَهُ القديمةَ بأخرى جديدةٍ وتجلّى في أثوابٍ قشيبةٍ.

حتميةُ الاكتفاءِ الذاتيّ وتوطينُ التقنياتِ الدفاعيةِ منظوراً قرآنياً

إنَّ ما يتسمُ بهِ الأمرُ الإلهيُّ «مَا اسْتَطَعْتُمْ» من إطلاقٍ وعموم وما ينطوي عليهِ التأكيدُ على إعدادِ «قوة» بكلِّ ما أُوتِيَ المسلمونَ من وُسعٍ وطاقةٍ، لَيُومِئُ في منظورِ طائفةٍ من أعلامِ المفسرينَ المعاصرينَ إلى حتميةِ استقلالِ القرارِ وتحقيقِ الاكتفاءِ الذاتيّ في تدبيرِ الاحتياجاتِ الدفاعيةِ، وتوطينِ الصناعاتِ العسكريةِ وتطويرِها داخلَ الحياضِ الإسلاميّ. وفي هذا السياق يُجلي السيد محمد حسين فضل الله (١٩٩٨: ١٠: ٤١٦-٤١٧) بوضوحٍ أنَّ معضلةَ الركونِ إلى دُوَلٍ أخرى في استيرادِ السلاحِ من شأنِها أنْ تُوقعَ البلدَ المستوردَ تحتَ نيرِ ضغوطٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ واقتصاديةٍ وثقافيةٍ، وأنْ تجعلَ مصائرَ أيّ مواجهةٍ عسكريةٍ رهينةً لسياساتِ البلدِ المُنتِجِ للسلاحِ وأجنداتِهِ الخفيةِ. ويُشدِّدُ سماحتُهُ على أنَّ هذا الواقعَ يَفرضُ، لزاماً، ما أسماهُ «إعداداً لإنتاجِ السلاحِ» (أي التأهبَ لتوطينِ صناعةِ السلاحِ وتملُّكِ ناصيتِها). كما يُعربُ كلٌّ من الشيخِ محمد أبو زهرة (د.ت، ٦: ٣١٧٤) والشيخِ جمال الدين القاسمي (١٩٩٧: ٥: ٣١٥) بأسفٍ بالغٍ عن غفلةِ المسلمينَ عن هذا الشأنِ المصيريّ وعن تبعيتِهم المُزريةِ في اقتناءِ السلاحِ للغيرِ (الذي قد يكونُ في بعضِ الأحايينِ من ألدِّ خصومِ

الإسلامِ ومناوئيهِ)، مُؤكدينَ على وجوبِ إنشاءِ قلاعٍ صناعيةٍ للأسلحةِ وتوطينِ الإنتاجِ الدفاعيّ بكافةِ أبعادِهِ. وتُبرهنُ هذهِ الرؤى المستنيرةُ على أنَّ مفهومَ «إعداد القوة»، في أسمى تجلياتِهِ وأنبلِ مقاصدِهِ، يستلزمُ بلوغَ درجةِ الاقتدارِ على إنتاجِ التقنياتِ الدفاعيةِ وتطويرِها في رحابِ المجتمعاتِ الإسلاميةِ، سدّاً لذريعةِ كلّ تبعيةٍ من شأنِها أنْ تُعرّضَ استقلالَ الأمةِ للخطرِ وتُقوّضَ أركانَ أمنِها القوميّ.

«إعداد القوة» إستراتيجيةً لتحقيقِ الأمنِ الشاملِ بمحوريةِ غايةِ «الترهيب»

إنَّ الأمرَ الربانيَّ بإعدادِ «قوة»، كما تجلّى في الآيةِ الستينَ من سورةِ الأنفالِ، ليسَ مجردَ توجيهٍ بالتجهُّزِ العسكريّ، بل هو إستراتيجيةٌ متكاملةُ الأركانِ، تهدفُ إلى إرساءِ دعائمِ أمنٍ راسخٍ وشاملٍ للمجتمعِ الإسلاميّ. وتكمنُ محوريةُ هذهِ الإستراتيجيةِ في غايتِها القصوى، المتمثلةِ في قولِهِ تعالى: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ»، وهو ما يُؤكّدُ على ضرورةِ بناءِ قدرةِ ردعٍ فعّالةٍ وواسعةِ النطاقِ. ويُعنى هذا المبحثُ بتحليلِ أبعادِ هذهِ الإستراتيجيةِ، بدءاً من الردعِ العسكريّ، وصولاً إلى مواجهةِ التهديداتِ الكامنةِ، وانتهاءً بضرورةِ إيلاءِ العنايةِ اللازمةِ لأبعادِ القوةِ غيرِ العسكريةِ.

الردعُ الفعّالُ (الترهيبُ): الفلسفةُ الجوهريةُ للتأهبِ الدفاعيّ

إنَّ الغايةَ الأوليةَ والأساسيةَ من «إعدادِ القوة»، كما نصَّتْ عليهِ الآيةُ الكريمةُ، هي تحقيقُ «الترهيبِ» أو الردعِ الفعّالِ. ولا يقتصرُ أثرُ هذا الردعِ على الأعداءِ المُعلَنينَ فحسب، بل يمتدُّ ليشملَ الأعداءَ المحتملينَ وغيرَ المعروفينَ أيضاً، ويستهدفُ في جوهرِهِ صونَ السلمِ والأمنِ من موقعِ الاقتدارِ والمنعةِ. لقد ذهبَ جمهورُ المفسرينَ إلى أنَّ لفظَ «تُرْهِبُونَ» يُفيدُ معنى «تُخَوِّفُونَ» (أي تُلقونَ الرُّعبَ في قلوبِهم) (انظر على سبيلِ المثالِ: الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢١؛ أبو عبيدة، ١٩٦١: ١: ٢٤٩؛ الثعلبي، ٢٠٠١: ٤: ٣٦٩؛ الواحدي، ١٩٩٤: ١: ٤٤٦؛ الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢؛ القرطبي، ١٩٤٥: ٨: ٣٥؛ ابن كثير، ١٩٩٨: ٤: ٧١). على أنَّ هذا التخويفَ ليسَ المقصودُ بهِ إثارةَ الهلعِ العبثيّ أو الاستعدادَ للعدوانِ، بل هو إيجادُ حالةٍ من المهابةِ والتأهبِ الشاملِ في كيانِ المجتمعِ المسلمِ بما من شأنِهِ أنْ يردعَ العدوَّ عن أيّ تفكيرٍ في النَّيْلِ منهُ أو التعدي على حُرُماتِهِ. وفي هذا السياقِ يُفصّلُ الإمامُ الفخرُ الرازي (١٩٩٩: ١٥: ٥٠٠) القولَ في الفوائدِ الجَمَّةِ المترتبةِ على هذا «الخوفِ» الذي يستشري في نفوسِ الأعداءِ، ومن ذلك أنهم يرتدونَ عن التفكيرِ في اقتحامِ ديارِ الإسلامِ بل وربما يُقدِمونَ من تلقاءِ أنفسِهم على أداءِ الجزيةِ، أو قد يكونُ هذا التأهبُ سبيلاً إلى استمالةِ قلوبِهم نحو الإيمانِ، فيكفّونَ عن مناصرةِ سائرِ الكفارِ ضدَّ المسلمينَ، ويُفضي ذلك في نهايةِ المطافِ إلى أنْ يكونَ

للمسلمينَ الزينةُ والمنعةُ والاقتدارُ في دارِ الإسلامِ. كما يُشدِّدُ سيد قطب (٢٠٠٤: ٣: ١٥٤٣) على أنَّ من الغاياتِ الأوليةِ لهذهِ القوةِ، ردعَ أعداءِ الدينِ عن مجردِ التفكيرِ في الاعتداءِ على «دارِ الإسلامِ»، فضلاً عن إرهابِهم من الوقوفِ في وجهِ امتدادِ الدعوةِ الإسلاميةِ الهادفةِ إلى تحريرِ الإنسانِ. ويُمثِّلُ هذا التأهبُ، في منظورِ بعضِ المفسرينَ المعاصرينَ، ضرباً من «السلامِ المسلَّحِ» الذي تكونُ فيهِ القوةُ والتأهبُ، في حدِّ ذاتِهما، عاملاً حاسماً في درءِ الحربِ وصونِ السلامِ (المراغي، د.ت، ١٠: ٢٥؛ الشعراوي، ١٩٩١: ٨: ٤٨١٨). وعليهِ، فإنَّ «الترهيبَ» في هذا المقامِ يُرادُ بهِ شلُّ إرادةِ العدوانِ لدى العدوِّ، وحملُهُ على احترامِ حقوقِ المجتمعِ المسلمِ وسيادتِهِ، وذلك من خلالِ إظهارِ القوةِ والتأهبِ الشاملِ على كافةِ الأصعدةِ.

التأهبُ لمواجهةِ التهديداتِ الكامنةِ والمجهولةِ (مفهومُ «آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ»)

تُوسِّعُ الآيةُ الكريمةُ نطاقَ الردعِ المطلوبِ ليتجاوزَ الأعداءَ المعروفينَ («عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»)، ويمتدَّ ليشملَ «آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ». وتُؤكِّدُ هذهِ العبارةُ القرآنيةُ على حتميةِ تأهبِ المجتمعِ المسلمِ لمجابهةِ التهديداتِ غيرِ المتوقعةِ، والمخاطرِ المستترةِ، ومواجهةِ خصومٍ قد لا تكونُ هويتُهم أو نواياهُم العدائيةُ باديةً للعيانِ في لحظةٍ معينةٍ. وفيما يتعلقُ بتحديدِ مصاديقِ هؤلاءِ «الآخرينَ»، فقد تباينتْ أنظارُ المفسرينَ، ممَّا يعكسُ مدى اتساعِ دائرةِ هؤلاءِ الأعداءِ وتشابُكَ طبيعتِهم. فمنهم من ذهبَ إلى أنهم «بنو قريظةَ» (ابن عباس نقلاً عن الفيروزآبادي، د.ت، ص ١٥١ ؛ مجاهد نقلاً عن الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢٢ ؛ مقاتل بن سليمان، ٢٠٠٢: ٢: ١٢٣ ؛ السمرقندي، ١٩٩٥: ٢: ٢٩). ومنهم من رأى أنهم «أهلُ فارسَ» (السدي نقلاً عن الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢٢ ؛ الثعلبي، ٢٠٠١: ٤: ٣٦٩ ؛ الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢ ؛ الزمخشري، ١٩٨٧: ٢: ٢٣٢) أو «الرومُ» (القرطبي، ١٩٤٥: ٨: ٣٨ نقلاً عن السدي). وثمةَ اتجاهٌ ثالثٌ، يحظى بأهميةٍ خاصةٍ وقد تبناهُ جمعٌ غفيرٌ من المفسرينَ كالحسنِ البصريِّ وابنِ زيدٍ والواحديِّ، يرى أنَّ المقصودَ بـ«الآخرينَ» هم «المنافقونَ»؛ أولئك الذينَ يندسونَ في صفوفِ المسلمينَ، يُظهرونَ الشهادتينِ وربما يشاركونَ في الغزواتِ، ولكنهم يُبطنونَ العداءَ، والمسلمونَ غافلونَ عن حقيقةِ نفاقِهم (الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢٢ ؛ الطوسي، د.ت، ٥: ١٤٨ ؛ الواحدي، ١٩٩٤: ١: ٤٤٦ ؛ الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٢ ؛ الرازي، ١٩٩٩: ١٥: ٥٠٠ ؛ ابن كثير، ١٩٩٨: ٤: ٧١ ؛ الآلوسي، ١٩٩٤: ٥: ٢٢٠). كما ذهبَ فريقٌ آخرُ إلى أنهم «كفارُ الجنِّ» أو «الشياطينُ» الذينَ تُرهبُهم وفقاً لبعضِ المروياتِ، صهيلُ الخيلِ (ابن عباس نقلاً عن الفيروزآبادي، د.ت، ص ١٥١ ؛ الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢٣ ؛ الطبراني، ٢٠٠٨: ٣: ٢٧١ ؛ الزمخشري، ١٩٨٧: ٢: ٢٣٢ ؛ القرطبي، ١٩٤٥: ٨: ٣٨ ؛ ابن كثير، ١٩٩٨: ٤: ٧١ ؛ رشيد رضا، ١٩٩٣: ١٠: ٦٧). ويُضيفُ الماتريديُّ

(٢٠٠٥: ٥: ٢٤٧) احتمالاً آخرَ، وهو أنْ يكونَ المرادُ بهم أعداءً سيظهرونَ في مستقبلِ الأيامِ إلى قيامِ الساعةِ. إنَّ هذا التنوعَ اللافتَ في تحديدِ مصاديقِ «الآخرينَ» لَيُنبئُ عن ضرورةِ استعدادِ المجتمعِ المسلمِ لمواجهةِ طيفٍ واسعٍ من التهديداتِ، سواءٌ أكانتْ من أعداءٍ داخليينَ أم خارجيينَ، ظاهرينَ أم مستترينَ، بل وحتى تلكَ المخاطرِ التي قد تستجدُّ في المستقبلِ. وتأتي عبارةُ «لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» لتُؤكِّدَ بجلاءٍ على هذا البُعدِ من عدمِ اليقينِ، ولِتُرسِّخَ حتميةَ التأهبِ الشاملِ والدائمِ.

«إعداد القوة» ركيزةً للأمنِ الشاملِ: آفاقٌ تتجاوزُ المفهومَ العسكريَّ المَحْضَ

على الرغمِ من أنَّ التجلياتِ الأوليةَ لمفهومِ «قوة» كانتْ تَنْصَبُّ في جُلِّها على مَظاهرِ الاقتدارِ العسكريّ، فإنَّ ثُلَّةً من أعلامِ المفسرينَ المعاصرينَ، كما سلفتِ الإشارةُ في المبحثِ الثاني، قد انطلقوا من رؤيةٍ ديناميةٍ خلاقةٍ لهذا المفهومِ الجوهريّ، فبسطوا آفاقَهُ الدلاليةَ لتستوعبَ كافةَ أبعادِ القوةِ الوطنيةِ الشاملةِ، التي تُعدُّ لَبِناتٍ أساسيةً في صرحِ أمنٍ راسخٍ ومستدامٍ. وبهذا المنظارِ الثاقبِ، يرتقي مبدأُ «إعداد القوة» من كونهِ مجردَ توجيهٍ بالتأهبِ العسكريّ، ليصبحَ إستراتيجيةً متكاملةَ الأركانِ، تهدفُ إلى بناءِ صرحِ الاقتدارِ الوطنيّ بمنأى عن أيّ تبعيةٍ أو انتقاصٍ. وفي هذا السياق يُقرِّرُ مفسرونَ أجلاءُ، من أمثالِ الشيخِ مكارم الشيرازي (٢٠٠٠: ٥: ٤٧١)، بأنَّ مفهومَ «قوة» لا يقتصرُ على العدةِ والعتادِ الحربيّ، بل يمتدُّ في رحابِهِ ليشملَ القدراتِ الاقتصاديةَ الناجزةَ، والحصانةَ الثقافيةَ المنيعةَ، والنفوذَ السياسيَّ الوازنَ. كما يُؤكِّدُ الصادقي الطهراني (١٩٨٥: ١٢: ٢٧٥-٢٧٨) على أنَّ «قوة» ينبغي أنْ تُستحصَلَ وتُوطَّنَ في كافةِ الميادينِ الحيويةِ، سواءٌ أكانتْ ثقافيةً أم عقديةً أم اقتصاديةً أم سياسيةً أم حربيةً، وأنَّ على الأمةِ الإسلاميةِ أنْ تبلغَ في جميعِ هذهِ المناحي درجةً من الاقتدارِ تخلعُ قلوبَ الأعداءِ رهبةً وتُلقي في أفئدتِهم الرعبَ. ويُشدِّدُ السيد محمد حسين فضل الله (١٩٩٨: ١٠: ٤١٦-٤١٧) على حتميةِ امتلاكِ ناصيةِ «قوة» في أبعادِها العلميةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ، بما يُعتِقُ الأمةَ الإسلاميةَ من ربقةِ التبعيةِ للغيرِ ويُمكِّنُها من أنْ تخطوَ في الساحةِ الدوليةِ مرفوعةَ الهامةِ، عزيزةَ الجانبِ، مستقلةَ القرارِ. ويُومِئُ كذلكَ محمد تقي المدرسي (١٩٩٨: ٤: ٧٨) إلى أنَّ المنظوماتِ الفكريةَ الإسلاميةَ الأصيلةَ يجبُ أنْ تتجسدَ قوةً اجتماعيةً متراصةَ البنيانِ، وأنَّ الكنوزَ الطبيعيةَ والمواردَ الخامَ ينبغي أنْ تُستثمَرَ لتُصبحَ قوةً اقتصاديةً ضاربةً وثروةً ماليةً حصينةً. وتُبرهنُ هذهِ القراءاتُ العميقةُ، بما لا يدعُ مجالاً للريبِ، على أنَّ الأمنَ الشاملَ، في منظورِهِ القرآنيّ الأصيلِ، إنَّما هو ثمرةٌ يانعةٌ للتنميةِ المتوازنةِ لكافةِ مقوماتِ الاقتدارِ الوطنيّ، وأنَّ الأمرَ الربانيَّ بـ«إعداد القوة» يُمثِّلُ توجيهاً إلهياً جامعاً، ومنهاجَ عملٍ متكاملاً، لبلوغِ هذهِ الغايةِ المنشودةِ وتحقيقِ هذا المقصدِ النبيلِ.

دورُ الإنفاقِ («وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ») في إرساءِ دعائمِ الأمنِ الشاملِ والضمانُ الإلهيُّ («يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»)

إنَّ بلوغَ مرتبةِ التأهبِ الدفاعيّ المنشودِ وتحقيقَ الأمنِ الشاملِ بكافةِ أبعادِهِ التي سلفتِ الإشارةُ إليها، لَيستلزمُ بطبيعةِ الحالِ استثماراً مُعتبراً وتخصيصَ مواردَ ماليةٍ طائلةٍ. ومن هذا المنطلق تأتي الآيةُ الكريمةُ، عَقِبَ الأمرِ الصريحِ بإعدادِ «قوة» و«رباطِ الخيلِ» مباشرةً، لِتُؤكِّدَ على المنزلةِ المحوريةِ للإنفاقِ في هذا المسارِ، إذ يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ». ويُفيدُ التنكيرُ والعمومُ في قولِهِ «مِنْ شَيْءٍ» شموليةَ الإنفاق بحيثُ يستوعبُ كلَّ ما يُبذَلُ من جهدٍ أو مالٍ، سواءٌ أكانَ مادياً ملموساً أم غيرَ ماديٍّ (كوقتٍ يُنفَق أو علمٍ يُبذَلُ، أو خبرةٍ تُوظَّفُ)، في سبيلِ اللهِ ومن أجلِ تقويةِ البُنيةِ الدفاعيةِ والأمنيةِ للمجتمعِ المسلمِ (مكارم الشيرازي، ٢٠٠٠: ٥: ٤٧٧؛ الطباطبائي، ١٩٧٠: ٩: ١٢٣-١٢٤). وأمَّا عبارةُ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فإنها وإنْ كانتْ تنصرفُ في المقامِ الأولِ إلى الجهادِ والتأهبِ العسكريّ، إلا أنها، في ضوءِ اتساعِ مفهومِ «قوة» ليشملَ الأبعادَ غيرَ العسكريةِ، يمكنُ أنْ تستوعبَ كافةَ النفقاتِ التي تُعدُّ ضروريةً لتقويةِ شوكةِ المجتمعِ المسلمِ وتحقيقِ أمنِهِ الشاملِ (الطبرسي، ١٩٥٣: ٤: ٨٥٤؛ الرازي، ١٩٩٩: ١٥: ٥٠١؛ رشيد رضا، ١٩٩٣: ١٠: ٦٩؛ الزحيلي، ١٩٩٠: ١٠: ٥٢). ويمثِّلُ الوعدُ الإلهيُّ «يُوَفَّ إِلَيْكُمْ» (أي يُردُّ إليكم وافياً كاملاً) و«وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» (أي لا يُنتقصُ من جزائِكم شيءٌ ولا يلحقُكم حيفٌ) ضمانةً ربانيةً لجبرانِ هذه النفقاتِ واستيفائِها، سواءٌ في العاجلةِ أم في الآجلةِ (ابن عباس نقلاً عن الفيروزآبادي، د.ت، ص ١٥١؛ الطبري، ١٩٩١: ١٠: ٢٤، ٥٠؛ ابن أبي حاتم، ١٩٩٨: ٥: ١٧٢١؛ الواحدي، ١٩٩٤: ١: ٤٤٦). وإنَّ هذا الضمانَ الإلهيَّ لَيُعدُّ حافزاً عظيماً للاستثمارِ الإستراتيجيّ في كافةِ مقوماتِ الاقتدارِ والأمنِ، إذ يُؤكِّدُ على أنَّ أيَّ جهدٍ يُبذَلُ وأيَّ نفقةٍ تُقدَّمُ في هذا السبيلِ، لن تذهبَ سُدىً، بل ستعودُ على المجتمعِ المسلمِ وأفرادِهِ بالخيرِ العميمِ والبركةِ والنماءِ على أتمِّ وجهٍ وأكملِهِ. وقد يتجلّى هذا العائدُ في صورٍ شتّى، كانتصارٍ مؤزَّرٍ، أو كسبٍ مغانم أو صونِ استقلالٍ، أو ترسيخِ أمنٍ في الحياةِ الدنيا (ابن عطية، ٢٠٠١: ٢: ٥٤٥؛ القاسمي، ١٩٩٧: ٥: ٣١٥)، فضلاً عن الأجرِ الجزيلِ والثوابِ العظيمِ في الدارِ الآخرةِ.

الخاتمة

يُظهر التحليلُ المعمَّقُ لآراء المفسرين حول الآية (٦٠) من سورة الأنفال، تحوُّلاً مفاهيمياً عميقاً ومُتَّسِقاً لمبدأ «إعداد القوة». لقد انبثق هذا المبدأُ المؤسِّسُ بقدرةٍ تأويليةٍ فذّة، مدعوماً بإطلاق لفظ

«قوة» وشمولية قاعدة «مَا اسْتَطَعْتُمْ»، مما مكّنه من التناغم الخلّاق مع التحديات المتجددة لكل عصر.

لقد أسهم الروّاد الأوائل للتفسير، بتأكيدهم على عدم تقييد القوة بمصداقٍ معيّن (كالرَّمْيِ ورباطِ الخيلِ)، في شقّ الطريق أمام هذه الدينامية. ويتجلّى هذا التحوُّل اليوم في توسيع نطاق «القوة» ليشمل كافة منظومات التقنية الدفاعية المعاصرة، وصولاً إلى أبعادها غير العسكرية المحورية؛ بما فيها الاقتدار الاقتصادي، والتفوُّق العلمي، والحصانة الثقافية، والنفوذ السياسي، واللحمة الاجتماعية. كما تحوّل مفهوم «رباط الخيل» ليصبح دالاً على التأهب اللوجستي الشامل والقدرة على المناورة الإستراتيجية بأحدث الوسائل.

يستند هذا التوسُّع الدلالي والتطور المفاهيمي، في كافة منعطفاته، إلى الغاية المحورية الناظمة: «الترهيب»، أي بناء منظومة ردعٍ فعّالة وحصيفة تجاه الأعداء الظاهرين والمستترين (آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ). وعليه، فإن «إعداد القوة» هو إستراتيجية قرآنية شاملة ومتكاملة الأبعاد، تهدف إلى إرساء أركان الأمن الشامل للمجتمع المسلم، من خلال تأسيس قوة ردع حقيقية، وهو ما يحث الأمة على بناء مقومات الاقتدار الشامل وبلوغ الاكتفاء الذاتي.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد؛ (۱۹۹۸)، **تفسير القرآن العظيم (ابن أبي حاتم)**، الرياض، مكتبة نزار مصطفى الباز.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب؛ (۲۰۰۱)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر؛ (۱۹۹۸)، **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

أبو السعود، محمد بن محمد؛ (۱۹۸۳)، **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

أبو حمزة الثمالي، ثابت بن دينار؛ (۱۹۹۹)، **تفسير القرآن الكريم (الثمالي)**، بيروت، دار المفيد.

أبو زهرة، محمد؛ (د.ت.)، **زهرة التفاسير**، بيروت، دار الفكر.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى؛ (۱۹۶۱)، **مجاز القرآن**، القاهرة، مكتبة الخانجي.

الأشكوري، محمد بن علي؛ (۱۹۹۴)، **تفسير شريف لاهيجي**، طهران، مكتب نشر داد.

الآلوسي، محمود بن عبد الله؛ (۱۹۹۴)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

البحراني، هاشم بن سليمان؛ (۱۹۹۴)، **البرهان في تفسير القرآن**، قم، مؤسسة البعثة، قسم الدراسات الإسلامية.

البرسوي، إسماعيل حقي؛ (د.ت.)، **تفسير روح البيان**، بيروت، دار الفكر.

البيضاوي، عبد الله بن عمر؛ (۱۹۹۷)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

حوى، سعيد؛ (۲۰۰۳)، **الأساس في التفسير**، القاهرة، دار السلام.

الحويزي، عبد علي بن جمعة؛ (۱۹۹۴)، **تفسير نور الثقلين**، قم، منشورات إسماعيليان.

الرازي، محمد بن عمر (فخر الدين)؛ (۱۹۹۹)، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الزحيلي، وهبة؛ (۱۹۹۰)، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، دار الفكر.

الزمخشري، محمود بن عمر؛ (۱۹۸۷)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بيروت، دار الكتاب العربي.

السبحاني التبريزي، جعفر؛ (٢٠١٦)، **منية الطالبين في تفسير القرآن المبين**، قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

السبزواري، محمد؛ (١٩٨٥)، **الجديد في تفسير القرآن المجيد**، بيروت، دار التعارف للمطبوعات.

السمرقندي، نصر بن محمد؛ (١٩٩٥)، **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**، بيروت، دار الفكر.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف؛ (١٩٩٣)، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

الشعراوي، محمد متولي؛ (١٩٩١)، **تفسير الشعراوي**، بيروت، أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات.

الصادقي الطهراني، محمد؛ (١٩٨٥)، **الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة**، قم، منشورات فرهنگ إسلامي.

الصادقي الطهراني، محمد؛ (د.ت.)، **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (الصادقي الطهراني)**، قم، مكتب المؤلف.

صديق حسن خان، محمد صديق؛ (١٩٩٩)، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

الطباطبائي، محمد حسين؛ (١٩٧٠)، **الميزان في تفسير القرآن**، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

الطبراني، سليمان بن أحمد؛ (٢٠٠٨)، **التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم (الطبراني)**، إربد، الأردن، دار الكتاب الثقافي.

الطبرسي، الفضل بن الحسن؛ (١٩٥٣)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، طهران، منشورات ناصر خسرو.

الطبري، محمد بن جرير؛ (١٩٩١)، **جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)**، بيروت، دار المعرفة.

الطوسي، محمد بن الحسن؛ (د.ت.)، **التبيان في تفسير القرآن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

العياشي، محمد بن مسعود؛ (١٩٦٠)، **التفسير (تفسير العياشي)**، طهران، المكتبة العلمية الإسلامية.

الفاضل المقداد، مقداد بن عبد الله؛ (١٩٩٤)، **كنز العرفان في فقه القرآن**، طهران، منشورات مرتضوي.

الفرّاء، يحيى بن زياد؛ (١٩٨٠)، **معاني القرآن (الفرّاء)**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فضل الله، محمد حسين؛ (١٩٩٨)، **من وحي القرآن**، بيروت، دار الملاك.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (جامع)؛ (د.ت.)، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، منسوب إلى عبد الله بن عباس، بيروت، دار الكتب العلمية.

القاسمي، جمال الدين؛ (١٩٩٧)، **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل**، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

قطب، سيد؛ (٢٠٠٤)، **في ظلال القرآن**، بيروت، دار الشروق.

القمي، علي بن إبراهيم؛ (١٩٨٤)، **تفسير القمي**، قم، دار الكتاب.

الكرمي، محمد؛ (١٩٨٢)، **التفسير لكتاب الله المنير**، قم، مطبعة علميه.

الماتریدي، محمد بن محمد؛ (۲۰۰۵)، **تأویلات أهل السنة (تفسیر الماتریدي)**، بیروت، دار الکتب العلمیة، منشورات محمد علي بیضون.

المدرسي، محمد تقي؛ (۱۹۹۸)، **من هدی القرآن**، طهران، دار محبي الحسین.

المراغي، أحمد مصطفی؛ (د.ت.)، **تفسیر المراغي**، بیروت، دار الفکر.

مقاتل، بن سلیمان؛ (۲۰۰۲)، **تفسیر مقاتل بن سلیمان**، بیروت، دار إحیاء التراث العربي.

مکارم الشیرازي، ناصر؛ (۲۰۰۰)، **الأمثل في تفسیر کتاب الله المنزل**، قم، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (علیه السلام).

الواحدي، علي بن أحمد؛ (۱۹۹۴)، **الوجیز في تفسیر الکتاب العزیز (الواحدي)**، بیروت، دار القلم.

Bibliography

*****Al-Qur'an al-Karim**

Abu al-Sa'ud, M. b. Muhammad. (1983). *Tafsir Abi al-Sa'ud* (Irshad al-Aql al-Salim ila Mazaya al-Qur'an al-Karim). Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
Abu Hamza al-Thumali, T. b. Dinar. (1999). *Tafsir al-Qur'an al-Karim* (al-Thumali). Beirut: Dar al-Mufid. [In Arabic]
Abu Ubaydah, Ma'mar b. al-Muthanna. (1961). *Majaz al-Qur'an*. Cairo: Maktabat al-Khanji. [In Arabic]
Abu Zahra, Muhammad. (n.d.). *Zahrat al-Tafasir*. Beirut: Dar al-Fikr. [In Arabic]
Al-Alusi, M. b. Abdullah. (1994). *Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Qur'an al-Azim*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Al-Ashkuri, M. b. Ali. (1994). *Tafsir Sharif Lahiji*. Tehran: Maktab Nashr Dad. [In Persian]
Al-Ayyashi, M. b. Mas'ud. (1960). *Al-Tafsir* (Tafsir al-Ayyashi). Tehran: Al-Maktabah al-Ilmiyyah al-Islamiyyah. [In Arabic]
Al-Bahrani, H. b. Sulaiman. (1994). *Al-Burhan fi Tafsir al-Qur'an*. Qum: Mu'assasat al-Bi'thah. [In Arabic]
Al-Baydawi, A. b. Omar. (1997). *Anwar al-Tanzil wa Asrar al-Ta'wil* (Tafsir al-Baydawi). Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
Al-Burusawi, I. Haqqi. (n.d.). *Tafsir Ruh al-Bayan*. Beirut: Dar al-Fikr. [In Arabic]
Al-Farra', Y. b. Ziyad. (1980). *Ma'ani al-Qur'an* (al-Farra'). Cairo: Al-Hay'ah al-Misriyyah al-Ammah li al-Kitab. [In Arabic]
Al-Fadil al-Miqdad, M. b. Abdullah. (1994). *Kanz al-Irfan fi Fiqh al-Qur'an*. Tehran: Manshurat Murtadawi. [In Arabic]
Al-Fayruzabadi, M. D. M. b. Ya'qub. (n.d.). *Tanwir al-Miqbas min Tafsir Ibn Abbas*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Al-Huwayzi, A. A. b. Jum'a. (1994). *Tafsir Nur al-Thaqalayn*. Qum: Manshurat Isma'iliyan. [In Arabic]
Al-Karmi, Muhammad. (1982). *Al-Tafsir li Kitab Allah al-Munir*. Qum: Matba'ah Ilmiyyah. [In Arabic]
Al-Qasimi, J. al-Din. (1997). *Tafsir al-Qasimi al-Musamma Mahasin al-Ta'wil*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Al-Qummi, A. b. Ibrahim. (1984). *Tafsir al-Qummi*. Qum: Dar al-Kitab. [In Arabic]

Al-Razi, M. b. Omar (Fakhr al-Din). (1999). *Al-Tafsir al-Kabir* (Mafatih al-Ghayb). Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
Al-Sabzawari, M. (1986). *Al-Jadid fi Tafsir al-Qur'an al-Majid*. Beirut: Dar al-Ta'aruf li al-Matbu'at. [In Arabic]
Al-Sadiqi al-Tahrani, M. (1986). *Al-Furqan fi Tafsir al-Qur'an bi al-Qur'an wa al-Sunnah*. Qum: Manshurat Farhang Islami. [In Arabic]
Al-Sadiqi al-Tahrani, M. (n.d.). *Al-Tafsir al-Mawdu'i li al-Qur'an al-Karim* (al-Sadiqi al-Tahrani). Qum: Maktab al-Mu'allif. [In Arabic]
Al-Samarqandi, N. b. Muhammad. (1995). *Tafsir al-Samarqandi al-Musamma Bahr al-Ulum*. Beirut: Dar al-Fikr. [In Arabic]
Al-Samin al-Halabi, A. b. Yusuf. (1993). *Al-Durr al-Masun fi Ulum al-Kitab al-Maknun*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Al-Sha'rawi, M. Mutawalli. (1991). *Tafsir al-Sha'rawi*. Beirut: Akhbar al-Yawm. [In Arabic]
Al-Subhani al-Tabrizi, Ja'far. (2016). *Munyat al-Talibin fi Tafsir al-Qur'an al-Mubin*. Qum: Mu'assasat al-Imam al-Sadiq. [In Arabic]
Al-Tabarani, S. b. Ahmad. (2008). *Al-Tafsir al-Kabir: Tafsir al-Qur'an al-Azim* (al-Tabarani). Irbid, Jordan: Dar al-Kitab al-Thaqafi. [In Arabic]
Al-Tabataba'i, M. H. (1970). *Al-Mizan fi Tafsir al-Qur'an*. Beirut: Mu'assasat al-A'lami li al-Matbu'at. [In Arabic]
Al-Tabarsi, F. b. al-Hasan. (1993). *Majma' al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an*. Tehran: Manshurat Nasir Khusraw. [In Arabic]
Al-Tabari, M. b. Jarir. (1991). *Jami' al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an* (Tafsir al-Tabari). Beirut: Dar al-Ma'rifah. [In Arabic]
Al-Tusi, M. b. al-Hasan. (n.d.). *Al-Tibyan fi Tafsir al-Qur'an*. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
Al-Wahidi, A. b. Ahmad. (1994). *Al-Wajiz fi Tafsir al-Kitab al-Aziz* (al-Wahidi). Beirut: Dar al-Qalam. [In Arabic]
Al-Zamakhshari, M. b. Omar. (1986). *Al-Kashshaf an Haqa'iq Ghawamid al-Tanzil*. Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi. [In Arabic]
Al-Zuhayli, Wahbah. (1990). *Al-Tafsir al-Munir fi al-Aqidah wa al-Shari'ah wa al-Manhaj*. Damascus: Dar al-Fikr. [In Arabic]
Hawwa, Said. (2003). *Al-Asas fi al-Tafsir*. Cairo: Dar al-Salam. [In Arabic]
Ibn Abi Hatim, A. R. b. Muhammad. (1998). *Tafsir al-Qur'an al-Azim* (Ibn Abi Hatim). Riyadh: Maktabat Nizar Mustafa al-Baz. [In Arabic]
Ibn Atiyyah, A. H. b. Ghalib. (2001). *Al-Muharrar al-Wajiz fi Tafsir al-Kitab al-Aziz*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Ibn Kathir, I. b. Omar. (1998). *Tafsir al-Qur'an al-Azim* (Ibn Kathir). Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]

Ma'turidi, M. b. Muhammad. (2005). *Ta'wilat Ahl al-Sunnah* (Tafsir al-Maturidi). Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Makarem Shirazi, Nasir. (2000). *Al-Amthal fi Tafsir Kitab Allah al-Munazzal*. Qum: Madrasat al-Imam Ali b. Abi Talib (a.s.). [In Arabic]
Muqatil b. Sulaiman. (2002). *Tafsir Muqatil b. Sulaiman*. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
Qutb, Sayyid. (2004). *Fi Zilal al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Shuruq. [In Arabic]
Siddiq Hasan Khan, M. S. (1999). *Fath al-Bayan fi Maqasid al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. [In Arabic]
Fadlallah, M. Hussein. (1998). *Min Wahy al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Malak. [In Arabic]
Al-Mudarrisi, M. T. (1998). *Min Huda al-Qur'an*. Tehran: Dar Muhibbi al-Husayn. [In Arabic]
Al-Maraghi, A. M. (n.d.). *Tafsir al-Maraghi*. Beirut: Dar al-Fikr. [In Arabic]